شرح الأربعين النووية

الحديث الخامس عشر

مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ

اللقاء الثامن عشر

الحديث الخامس عشر:

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: (مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، ومَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) رواه البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

إن من أعلام الصحابة وساداتهم، علماً وحفظاً، وعبادة وزهداً، وسماحة وكرماً الصحابيَّ الجليل أبا هريرة رضي الله عنه.... وقد سبق الحديث عن سيرته العطرة فيرجع إلى الأحاديث التي تم شرحها سابقاً....

منزلة الحديث:

هذا الحديث عظيم تتفرع منه آداب الخير، وقيل فيه: إنه نصف الإسلام؛ لأن الأحكام تتعلق بالحق، أو الخلق، وهذا أفاد الثاني. [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: هذا من جوامع الكلم؛ لأن القول كله إما خير وإما شر آيل إلى أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها، فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر، فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت. [فتح الباري].

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث من القواعد العميمة العظيمة؛ لأنه بين فيه أحكام اللسان الذي هو أكثر الجوارح فعلًا، فهو بهذا الاعتبار يصح أن يقال فيه: إنه ثلث الإسلام.

وقال ابن عثيمين رحمه الله: هو من الآداب الإسلامية الواجبة.

الشرح:

إن الإيمان بالله واليوم الآخر يهذب النفوس ويقوم السلوك؛ لأن الفرد يربط كل حركاته وسكناته بالأجر والمثوبة من الله يوم القيامة قَالَ-ﷺ-:(مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، ومَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ).

يُرشِدُنا النَّبيُّ -ﷺ- في هذا الحَديثِ إلى التَّحَلِّي بِالآدابِ والأخْلاقِ الإسلامِيَّةِ، الَّتي تَزيدُ الأُلفةَ والمَوَدَّةَ بيْن المُسلِمينَ، فيُخبرُ أنَّ مَن كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ الَّذي خَلَقَه إيمانًا كامِلًا، ويُؤمِنُ باليَومِ الآخِرِ الَّذي إلَيهِ مَعادُه وفيه مُجازاتُه بِعَمَلِه فَلْيَقُلْ خَيرًا، أو ليَصمُتْ، أي: يَلتَزِمِ السُّكوتَ إن لم يستطِعْ قَولَ الخيرِ؛ وذلك أنَّ الإنسانَ في الأصلِ مأمورٌ بقولِ الخيرِ دومًا، وإنما نَبَّه وشَدَّد عليه؛ لأنَّ آفاتِ اللِّسانِ كَثيرةٌ، فإنَّ المرْءَ إذا أراد أنْ يَتكلَّمَ، فَلْيَتفكَّرْ قبْلَ كَلامِه؛ فإنْ علِمَ أنَّه لا يَترتَّبُ عليه مَفسدةٌ ولا يجُرُّ إلى مُحرَّمٍ ولا مَكروهٍ، فَلْيتكلَّمْ، وإنْ كان مُباحًا فالسَّلامةُ في السُّكوتِ؛ لِئلَّا يجُرَّ المُباحُ إلى مُحرَّمٍ أو مَكروهٍ. الدرر السنية

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "فَلْيَقُلْ خَيرًا" اللام للأمر، والخير نوعان:

❶خير في المقال نفسه، وخير في المراد به. أما الخير في المقال: فأن يذكر الله عزّ وجل ويسبّح ويحمد ويقرأ القرآن ويعلم العلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فهذا خير بنفسه.

❷وأما الخير لغيره: فأن يقول قولاً ليس خيراً في نفسه، ولكن من أجل إدخال السرور على جلسائه، فإن هذا خير لما يترتب عليه من الأنس وإزالة الوحشة وحصول الإلفة، لأنك لو جلست مع قوم ولم تجد شيئاً يكون خيراً بذاته وبقيت صامتاً من حين دخلت إلى أن قمت صار في هذا وحشة وعدم إلفة، لكن تحدث ولو بكلام ليس خيراً في نفسه، ولكن من أجل إدخال السرور على جلسائك، فإن هذا خير لغيره.

وقال رحمه الله: المقال ثلاثة أقسام: خير، وشر، ولغو. فالخير: هو المطلوب. والشر: محرم، أي أن يقول الإنسان قولاً شراً سواء كان القول شراً في نفسه أو شراً فيما يترتب عليه. واللغو: ما ليس فيه خير ولا شرّ فلا يحرم أن يقول الإنسان اللغو، ولكن الأفضل أن يسكت عنه.

وعلى الرغم من صغر حجم اللسان بالنسبة لأعضاء الإنسان الأخرى، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطرًا على الإنسان، فهو المقوَد الذي يوجِّه الإنسان، فبه يستقيم، وبه ينحرف.

وقال -ﷺ-: «إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكفِّرُ اللِّسانَ فتقولُ اتَّقِ اللَّهَ فينا فإنَّما نحنُ بِك فإن استقمتَ استقمنا وإن اعوججتَ اعوججنا»[صحيح الترمذي].

"تكفِّرُ اللِّسانَ"، أي: يَخضَعون ويتَذلَّلون له، وقيل: تُنزِّلُ الأعضاءُ اللسانَ مَنزِلةَ الكافرِ بالنِّعمِ، "فتَقولُ"، أي: للِّسانِ، "اتَّقِ اللهَ فينا"، أي: كُنْ على خوفٍ مِن اللهِ؛ "فإنَّما نحن بك"، أي: إنَّنا مَجْزيُّون بالثَّوابِ أو العِقابِ بما تقولُه مِن كلامٍ. الدرر السنية

وقال -ﷺ-: «وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهِم أو على مَناخرِهِم إلَّا حَصائدُ ألسنتِهِم» صحيح الترمذي

هل هناك شيءٌ يَجعَلُهم يُصرَعون على وُجوهِهم ويَسقُطون، إلَّا بسبَبِ ما يَحصُدونه يومَ القيامةِ مِن كَثرةِ الكلامِ في الدُّنيا في غيرِ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. الدرر السنية

ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة.

للألفاظِ والكلماتِ دلائلُها ومعانيها التي تحملُ في طيَّاتها الخير فيُجازى عليها الإنسانُ بالإحسان إحسانًا، أو تحملُ في طيَّاتها الشرَّ والفُحْشَ والبذاءَ فيُجازى عليها بالسيئات إلى يوم المعاد، وإنَّ لجارحة اللسانِ أعظم الأثرِ في حياةِ المسلمِ دينًا ودنيا، ربطَ اللهُ عليها الفلاحَ، وعلَّقَ عليها السعادةَ أو الشقاوةَ في العاجلِ والآجلِ، ورتَّبَ عليها الجزاءَ والعقابَ.

بكلمةٍ واحدةٍ يدخلُ العبدُ في الدين والملَّة؛ ألا وهي كلمةُ التوحيدِ الخالصِ: "لا إله إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله"، وبكلمةٍ واحدةٍ يتبوّأُ العبدُ في الجنة (غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ)، قال-ﷺ-: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها دَرَجاتٍ»، وبكلمةٍ أُخرى يزلُّ العبدُ في النار أبعدَ ممّا بين المشرق والمغرب! قال-ﷺ-:«وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ» صحيح البخاري، عن

أبي هريرة رضي الله عنه، سمع رسول الله –ﷺ– يقول: «إنَّ العبدَ لَيتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ ما يَتَبَيَّنُ فيها، يَزِلُّ بِها في النارِ أبعدَ ما بين المشرقِ والمغرِبِ»[متفق عليه].

قال–ﷺ–:«من قال في مؤمنٍ ما ليس فيه أسكنه اللهُ رَدْغَةَ الخَبالِ حتَّى يخرُجَ ممَّا قال» صحيح أبي داود، والمرادُ: أنَّ اللهَ يُعذِّبُه بِعُصارةِ أهلِ النَّارِ وصَديدِهم، "حتَّى يَخرُجَ ممَّا قال"؛ وذلك بأَن يَتوبَ ويَستَحِلَّ ممَّن قالَ فيه ذلك. الدرر السنية

إنَّ الكلمات هي الترجمانُ المعبّرُ عن مستودعات الضمائر، والكاشفُ عن مكنوناتِ السرائرِ، فإذا أردت أن تستدل على ما في قلب الإنسان فانظر إلى كلماته وألفاظه، فإنَّها الدليل على ما يكنُّه في قلبه من خير أو شرٍّ، شاء أم أبى، قال الإمام يحيى بن معاذٍ التَّابعيُّ: "القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلَّم، فإنَّ لسانه يغترف لك مما في قلبه".

الكلمات التي تنطق بها الألسن، وتتحرك بها الشفاه، لها شأنٌ، وأي شأن! فكم من كلمة أفرحت وأخرى أحزنت، وكم من كلمة فرقت وأخرى جمعت، وكم من كلمة أقامت وغيرها هدمت، وكم من كلمة أضحكت وأخرى أبكت، وكم من كلمة انشرح لها الصدر وأنس بها الفؤاد وأحس بسببها سعة الدنيا وأخرى انقبضت لها النفس واستوحشها القلب وألقت قائلها أو سامعها في ضيق أو ضنك، فضاقت عليه الدنيا على رحابتها والأرض على سعتها! وكم من كلمة واست جروحاً وأخرى نكأت وأحدثت حروقاً!.

وقال ذو النون المصري رحمه الله: أحسن الناس لنفسه أملَكُهم للسانه.

أخذ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه بطرف لسانه وقال: (هذا الذي أوردني الموارد)، وهذا مع فَضلِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ ودِينِه ووَرَعِه.

ولما لهذا العضو من خطر كانت أحاديث الرسول –ﷺ– كثيرة في الحث على ضبطه ومحاسبته، وبيان جزاء من استطاع فعل ذلك.

فعن سهل بن سعد، عن رسول الله –ﷺ– قال: «مَن يَضْمَن لي ما بيْنَ لَحْيَيْهِ وما بيْنَ رِجْلَيْهِ، أضْمَنْ له الجَنَّةَ»[صحيح البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سُئِلَ عن أَكْثَرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ النَّارَ، قالَ : الفَمُ والفَرجُ»[أخرجه الترمذي].

وعن عقبة بن عامر قال: «قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ ما النَّجاةُ؟ قال: أمسِكْ عليْكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتِكَ»[صحيح الترمذي]

قال ابنُ القيّم الجوزيَّة –رحمه الله–: من أنَّ الإنسان يهون عليه التحفُّظُ والاحتراز عن كثيرٍ من أفعال الحرام، من الظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك، ويصعب عليه التحفُّظ من حركة لسانه؛ حتَّى إنَّك لترى الرجل يُشار إليه بالدين والعبادة والزهد ونحوها من صفات الخير ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ويتقلَّبُ في المحرمَّات، لا يبالي بما يقول، يتكلَّم بالكلمات من سخط الله –تعالى– لا يلقي لها بالاً، يهوي بالكلمة الواحدة في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب، والله المستعان.

الكلمة الخبيثة خطيرة؛ أعظمُها الإشراكُ بالله –تعالى–، والقولُ على الله بغير علمٍ، وشهادةُ الزورِ، والسحرُ، والقذفُ، والشتمُ والسّبابُ، والغيبةُ والنميمةُ، والكذبُ، والمراءُ والجدالُ بالباطل، وتزكية النفوسِ، والخصوماتُ، والغناءُ المحرّم، والسُّخريةُ والهمزُ والاستهزاءُ بالمسلمين وبدينهم، كلُّ هذه من أُمّهات الخبائث الموجبة للحرمان من رحمة الله، المورثة للضغائن والأحقاد بين الناس.

وإذا أنعم اللهُ –سبحانه وتعالى– على العبد بصدق اللهجة، وطيب الحديث، وجمال المنطق؛ شَرُفَ قدرُهُ، وحُمِدت سيرتُهُ، وحَسُنَت عاقبتُهُ، فملكَ قلوبَ الناس، وأمنوه على أقوالِهم ووصاياهم وأماناتِهم، من صَلحَ منطقُ لسانه وطاب ظهرَ ذلك على سائرِ عملهِ، فأكسبَه حُسْنًا وأجرًا وقبولاً، ومن فسَد منطقُهُ وخَبُثَ انعكس أثرُه على سائر عمله.

الكلامُ هو حصادُ اللسان، ولذا كان لِزَامًا على المرءِ العاقل أن يكون كلامُه فيما يعودُ عليه بالنفع ويُجنّبه الضّررَ، وأن يحترسَ من زَلَلِهِ، وأن يحذرَ من فضولِه بالإمساكِ عن كثيرِه والإقلالِ منه، "لأنه أسباب قسوة القلب كثرةُ الضَّحك وكثرةُ الكلامِ وكثرةُ الأكلِ وكثرةُ النومِ"، إلاَّ ما كان في طاعة الله –سبحانه– من تهليلٍ وتحميدٍ وذكرٍ وتسبيحٍ ودعاءٍ واستغفارٍ؛ فإنَّ الإكثارَ منه هو النجاةُ.

جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيّ –ﷺ– فقال: دُلَّني على عَملٍ يُدخلُني الجَنَّةَ، قَالَ: "أَطْعِمِ الجَائِعَ، وَاسْقِ الظَمآنَ، وأمُر بالمعروفِ، وَانْهَ عن المنكرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ فَكُفَّ لِسَانَكَ إلاَّ مِنْ خَيْرٍ" رواه ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ جيّدٍ.

ولقد ذكر أهل العلم آدابا للكلام، فمن ذلك: اختيارُ الكلمات والألفاظ التي يتكلَّمُ بها المرءُ من أطايبِ الكَلاَمِ وأنفسِهِ، والبُعْد عن البَذَاءَةِ والفُحْشِ في القولِ والمنطقِ؛ قال -تعالى-: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، ولم يقل الحسنى أو الحسن، بل (الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) [الإسراء:53].

فأحقُّ ما طهَّر الإنسانُ لسانه؛ لأنَّ اللسانَ عنوانُ صاحبِه، يُترجمُ عن مجهوله، ويُبرهنُ عن محصوله، فهو وزيرُه الذي يُستدلُّ به على رجحان عقله وفصاحة لسانه، حتى لقد قال بعضُ السلف: "ما الإنسانُ لولا اللسانُ؟! هل كان إلاّ بهيمةً مهملةً أو صورةً مُمثّلةً؟!".

وإنَّ عُظَمَاءَ الخلقِ هم الذين يَزِنُونَ ألفاظهم، ويتخيَّرون أطايب الكلام وأحسنه في عباراتهم، ويلتزمون في أحوالهم جميعًا أن لاّ تبدُرَ منهم كلمةٌ قبيحةٌ، أو لفظةٌ سائبةٌ مغلوطةٌ أو مكذوبةٌ، فيكونون بها سفهاءَ أو متطاولين على غيرهم؛ لأنَّ الكلمةَ يملكها الإنسان ما لم يتكلَّم بها، فإذا خرجت من فمه ملكته.

ومما يدخل في هذا نزاهة اللسان عن الفحش والبذاءة وساقط القول، سواء في الكلام أو في تسمية الأشياء بأسمائها وإن كانت حقاً! قال رسول الله -ﷺ-: "ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ".

قال الإمام النووي: ومما ينهى عنه ذكر الأمور المستقبحة بعبارة صريحة، وأن كانت صحيحة والمتكلم بها صادقاً، وينبغي أن يستعمل في ذلك الكنايات، وبهذا جاء القرآن والسنة، قال -تعالى-: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) [البقرة:187]، وقال -تعالى-: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) [النساء:21]، قال العلماء: فينبغي أن يستعمل في هذا وأشباهه من العبارات التي يستحيا من ذكرها الكنايات المفهمة، كما كنى الله عن الجماع بالرفث والإفضاء، وكنى عن قضاء الحاجة بالغائط، وهو المكان المنخفض من الأرض، وكنى عن مظنة وقوع الفاحشة أو حدوث ما لا تحمد عقباه بنوم الأبناء بنين وبنات بعد سن العاشرة مع بعضهم بقوله: "وفَرِّقُوا بَينهمْ في المضاجعِ"، من غير تفصيل أو تصريح بما قد يقع، والقرآن والسنة مملوءان بكثير من أمثلة ذلك.

ومن المواطن التي ينبغي الصمت فيها أن يصمت الإنسان عن الخوض في الجدالات، والدخول في المتاهات، والتعمق في الجدل والمناظرات، خاصة المناظرات التي لا فائدة منها ولا حاجة لها، وإنما هي نوع من التفلسف الكلامي والترف الجدلي، يقول النبي-ﷺ-: "أَنَا زَعِيمُ بَيْتٍ

فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعَلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ" [المعجم الأوسط:4693].

فعلى المسلم أن تكون ألفاظه مضرب المثل في السمو والأدب، وألا يتوهم أنه إذا كان صريحا وصادقا في كلامه فأنه لا بأس عليه أن يلبس عباراته أي ثوب شاء!.

يقول الله –تعالى–: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب:70–71] قال ابن كثير في تفسيره –رحمه الله تعالى–: يقول الله –تعالى– آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا قولاً سديداً، أي: مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع في المستقبل يلهمهم التوبة منه. اهـ.

قال العلاّمةُ القرطبيُّ –رحمه الله–: "ينبغي للإنسان أن يكونَ قولُه للناس ليّنًا، ووجهُه منبسطًا مع البَرّ والفاجرِ، من غير مُدَاهَنةٍ؛ لأنّ الله –تعالى– قال لموسى وهارون: (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) [طه:44]، يعني: لفرعون، فالقائلُ ليس بأفضلَ من موسى وهارون، والفاجرُ ليس بأخبثَ من فرعون، وقد أمرَهما ربُّهما باللين معه".

وقال رسول الهدى –صلى الله عليه وسلم–: "وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ" رواه مسلم

فالكلمةُ الطيّبةُ تحفظُ المودّةَ ، وتستديمُ الصحبةَ، وتمنعُ كيدَ الشيطان أن يُوهِيَ بينَ الأصدقاءِ والإخوان من المسلمين الحبالَ ويفسدَ ذاتَ بينِهم؛ (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ).

الكلمةُ الطيّبةُ تغسلُ الضغائنَ المستكنةَ في الجوارح، وتجمعُ الأفئدةَ، وتجلبُ المودّةَ، ولنا في رسول الله –ﷺ–أُسوةٌ حسنةٌ؛ فقد قال: "لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيئًا، وَلَو أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ" رواه مسلم. قال عمرُ بن الخطاب –رضي الله عنه–: "البرُّ شيءٌ هيّنٌ؛ وجهٌ طَليقٌ، وكلامٌ ليّنٌ".

بل إنَّ طيبَ الكلام حتى مع الأعداءِ مطلوبٌ؛ لأنَّه سببٌ في إطفاء الخصومة وإخماد الغضبِ؛ مِمَّا يُقرّبُ القلوبَ ويُذهبُ غيظَ الصدورِ، (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت:34].

فكلُّ كلمةٍ لا تضرُّ في الدين ولا تُسخطُ الربَّ الكريمَ وتُرضي الجليسَ فلا نبخلْ بها، يأجُرُنا الله عليها، وتكون حِجَابًا لنا من النار، قال -ﷺ-: "اتَّقوا النارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَن لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ" متفقٌ عليه

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: تعلموا الصمت كما تعلمون الكلام، فإنَّ الصمت حلم عظيم، وكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تتكلم، ولا تتكلم في شيء لا يعنيك.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أفضل العبادة الصمت، وانتظار الفرج".

إن العلاج الرئيسي لعدم الوقوع في مزالق اللسان ومهالكها هو الصمت، ولا نجاة من أخطار اللسان إلا بالصمت، قال تعالى:(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق:18].

ومن هنا كان إمساك اللسان فضيلة ينبغي الحرص عليها، «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرَاً أَو لِيَصْمُتْ».

ومَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ الَّذي خَلَقَه إيمانًا كامِلًا، ويُؤمِنُ باليَومِ الآخِرِ الَّذي إلَيهِ مَعادُه وفيه مُجازاتُه بِعَمَلِه؛ فَلا يُؤذِ جارَه، بل يُكرِمُه بالإحسانِ إليه واللُّطفِ في معامَلَتِه.

حُقُوقُ الْجَارِ عَلَى جَارِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْحُقُوقِ وَآكَدِهَا، وَأَذِيَّتُهُ مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ وَكَبَائِرِهَا، وَمَا أَشَدَّ جَهْلَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بِهَا! فِي زَمَنٍ ضَعُفَتْ فِيهِ الرَّوَابِطُ وَالصِّلَاتُ، وَضُيِّعَتْ فِيهِ الْحُقُوقُ وَالْوَاجِبَاتُ، وَطَغَتِ الْفَرْدِيَّةُ وَالمَادِّيَّةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

إِنَّ أَذَى الْجَارِ لِجَارِهِ فِيهِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، وَتَحْقِيقُ كَمَالِ الْإِيمَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَجَنُّبِ أَذِيَّةِ الْجَارِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -ﷺ-: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ...» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

فَكَفُّ الْأَذَى عَنِ الْجَارِ سَبَبٌ لِتَحْقِيقِ كَمَالِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ مَنْفِيٌّ عَمَّنْ يُؤْذِي جَارَهُ، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ-قَالَ: «وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ»(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ: «قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ».

فَلْنَتَأَمَّلْ شِدَّةَ الْوَعِيدِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ حِينَ يَنْفِي النَّبِيُّ -ﷺ-الْإِيمَانَ عَمَّنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ، وَيُقْسِمُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ أَصْدَقُ النَّاسِ وَأَعْلَمُهُمْ، وَيُكَرِّرُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لِشِدَّتِهِ وَفَظَاعَتِهِ؛ نُصْحًا لِلْعِبَادِ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَتَحْذِيرًا لَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ بَلَاغَةِ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْلِيقُ الْإِيمَانِ عَلَى حُصُولِ الْأَمْنِ، فَكَمَالُ إِيمَانِ الْعَبْدِ مُعَلَّقٌ بِأَمْنِ جَارِهِ شَرَّهُ، فَقَدْ يُحْرَمُ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ أَذِيَّتِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ -ﷺ-: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَلِكَثْرَةِ مَا بَيْنَ الْجِيرَانِ مِنَ الْحُقُوقِ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْ أَدَائِهَا، وَكَثْرَةِ مَا يَقَعُ مِنْ أَذِيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَإِنَّهُمْ يَخْتَصِمُونَ عِنْدَ اللَّهِ -تَعَالَى- فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ حُقُوقٍ قَدْ ضُيِّعَتْ، وَفِيمَا وَقَعَ مِنْ أَذَى بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ» (رَوَاهُ أَحْمَدُ).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -ﷺ-يَقُولُ: «كَمْ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي فَمَنَعَ مَعْرُوفَهُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ المُفْرَدِ).

وَيَنَالُ مُؤْذِي جَارَهُ سَبَّ النَّاسِ وَمَلَامَتَهُمْ، وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ شَكَا لِلنَّاسِ أَذَى جَارِهِ فَمَقَتُوهُ وَلَهَجُوا بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْجَارَ مُلَازِمٌ لِلدَّارِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ دَارِهِ، فَيَبْقَى الْأَذَى عَلَيْهِ مَا بَقِيَ جَارُهُ المُؤْذِي، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَاصْبِرْ» فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ» فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ، وَفَعَلَ، وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: "ارْجِعْ، لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).

وَالِاقْتِصَادُ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعَ كَفِّ الْأَذَى عَنِ الْجِيرَانِ، خَيْرٌ مِنْ كَثْرَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعَ أَذَى الْجِيرَانِ؛ لِمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ -ﷺ-: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَّدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللهُ عَلَيهِ وسَلم-: "لاَ خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ" قَالُوا: وَفُلاَنَةٌ تُصَلِّي المَكْتُوبَةَ، وَتَصَّدَّقُ بِأَثْوَارٍ، وَلاَ تُؤْذِي أَحَدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: "هِيَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ المُفْرَدِ).

وَإِذَا بَلَغَتْ أَذِيَّةُ الْجَارِ مَبْلَغًا يَجْعَلُ جَارَهُ يُفَارِقُ بَيْتَهُ لِأَجْلِ مَا يَلْقَى مِنْ أَذَى فَالمُؤْذِي عَلَى خَطَرٍ مِنْ نُزُولِ الْعُقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ بِهِ، الَّتِي قَدْ تُهْلِكُهُ أَوْ تُهْلِكُ وَلَدَهُ أَوْ تُتْلِفُ مَالَهُ، قَالَ ثَوْبَانُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «...مَا مِنْ جَارٍ يَظْلِمُ جَارَهُ وَيَقْهَرُهُ، حَتَّى يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ، إِلَّا هَلَكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ المُفْرَدِ).

وَأَذَى الْجَارِ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، فَمِنْ أَذَى الْقَوْلِ: شَتْمُهُ وَسِبَابُهُ وَغِيبَتُهُ وَالِافْتِرَاءُ عَلَيْهِ، وَتَشْوِيهُ سُمْعَتِهِ، وَالْوَاجِبُ إِحْسَانُ الْقَوْلِ لَهُ وَفِيهِ، وَسَتْرُ عُيُوبِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– أَنَّ مِنَ الْفَوَاقِرِ: جَارَ سَوْءٍ إِنْ رَأَى حَسَنَةً غَطَّاهَا، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً أَفْشَاهَا. وَالْفَوَاقِرُ هِيَ الدَّوَاهِي، كَأَنَّهَا تَحْطِم فَقَارِ الظَّهْرِ.

وَأَذَى الْفِعْلِ كَثِيرٌ سَوَاءً آذَاهُ فِي نَفْسِهِ بِالِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ، أَوْ آذَاهُ فِي مَالِهِ بِسَرِقَتِهِ أَوْ إِتْلَافِهِ، أَوْ آذَاهُ فِي أَهْلِهِ بِالتَّعَرُّضِ لَهُمْ، أَوِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، أَوْ آذَاهُ فِي بَيْتِهِ أَوْ سَيَّارَتِهِ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعِهِ.

وَفِي حَدِيثِ المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ النَّبِيَّ –ﷺ– قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ»....وقَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).

وَكَانَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ يُفَاخِرُ فِي جَاهِلِيَّتِهِ بِأَنَّهُ يَغُضُّ بَصَرَهُ عَنْ جَارَتِهِ، وَلَا يَقْرَبُ بَيْتَهَا إِلَّا وَبَعْلُهَا حَاضِرٌ، وَأَشْعَارُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ. فَالْجَارُ مُؤْتَمَنٌ عَلَى عِرْضِ جَارِهِ وَحَرِيمِهِ، فَيَحْفَظُ بَصَرَهُ عَنْهُمْ فِي غَيْبَةِ جَارِهِ كَمَا يَحْفَظُهُ بِحَضْرَتِهِ.

وَالْفُقَهَاءُ ذَكَرُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ المُتَعَلِّقَةِ بِجِيرَانِ الدُّورِ وَجِيرَانِ المَزَارِعِ وَنَحْوِهَا، وَذَكَرُوا مَا يُمْنَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ فِعْلِهِ فِي مُلْكِهِ أَوْ فِي مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَارِهِ كَطَرِيقٍ وَنَحْوِهِ؛ لِئَلَّا يُؤْذِيَ جَارَهُ، وَضَابِطُ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مُلْكِهِ بِمَا يُؤْذِي جَارَهُ.

وَإِذَا احْتَاجَ الْجَارُ إِلَى مَنْفَعَةٍ فِي دَارِ جَارِهِ أَوْ حَائِطِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ مِنْهَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ لَا يَضُرُّهُ، وَمَنْعُهُ مِنْهَا يُوقِعُ الْأَذَى عَلَيْهِ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ أَذَى جَارِهِ، وَرَحِمَ اللهُ –تَعَالَى– امْرَأً أَصْلَحَ بَيْنَ جَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَتَحَمَّلَ فِي ذَلِكَ مَا تَحَمَّلَ.

عَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ –ﷺ–: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي، فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ –ﷺ– فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي، فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا، قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. (رَوَاهُ أَحْمَدُ).

مَا أَعْظَمَهُ مِنْ عَمَلٍ! وَمَا أَجَلَّهُ مِنْ ثَمَنٍ! أَعْطَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بُسْتَانًا كَامِلاً بِنَخْلَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِيَرْفَعَ الضَّرَرَ عَنْ جَارِهِ، فَكَانَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ أَعْظَمُ وَأَحْسَنُ مِمَّا بَذَلَ.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

قَدْ يُؤْذِي الْجَارُ جَارَهُ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يُؤْذِيهِ، أَوْ يَصْدُرُ مِنْ بَيْتِهِ مَا يُؤْذِيهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَفَطَّنَ لِذَلِكَ، وَمَا يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ يُؤْذِي بِهِ جِيرَانَهُ فَلْيَجْتَنِبْهُ، أَوْ يَسْأَلْهُمْ إِنْ كَانَ يَلْحَقُهُمْ أَذًى مِنْهُ، وَيَطْلُبُ الْعَفْوَ مِنْهُمْ.

وَكَمْ مِنْ جَارٍ يُؤْذِي جِيرَانَهُ بِإِزْعَاجِهِمْ فِي وَقْتِ رَاحَتِهِمْ، وَأَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ تَخْرُجُ أَصْوَاتُ المَعَازِفِ مِنْ دُورِهِمْ أَوْ سَيَّارَاتِهِمْ آخِرَ اللَّيْلِ فَيُؤْذُونَ بِهَا المُتَهَجِّدِينَ، وَيُوقِظُونَ بِهَا النَّائِمِينَ، وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْأَذَى.

وَكَمَا أَنَّهُ يُنْهَى عَنْ أَذِيَّةِ الْجَارِ فَكَذَلِكَ يُرَغَّبُ فِي الصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُ، وَتَحَمُّلِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فِيهِ أَذًى، وَلَا يُقَابِلُ أَذِيَّةَ جَارِهِ لَهُ بِالْمِثْلِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ نَالَ مَحَبَّةَ اللَّهِ -تَعَالَى-؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ...» وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَرَجُلٌ لَهُ جَارٌ يُؤْذِيهِ، فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ وَيَحْتَسِبُهُ حَتَّى يَكْفِيَهُ اللهُ إِيَّاهُ بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ...» (رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ).

إِنَّ للجار منزلة عظيمة في شريعة الإسلام، حتى إنَّ النبي -ﷺ- ظن أنَّ الجار سيرث جاره إنْ مات، مِن كثرة إيصاء جبريل ـ عليه السلام ـ له بالجار، إذ صحَّ عنه -ﷺ- أنَّه قال: ((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)).

وبكثرة الإحسان إلى الجار ترتفع منزلة العبد عند ربه سبحانه، لِما ثبت عن النبي -ﷺ- أنَّه قال: ((خَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ)).

وحُسن الجِوار مِن أسباب عِمران الديار، وزيادة الأعمار، لِمَا ثبت عن النبي -ﷺ- أنَّه قال: ((حُسْنُ الْخُلُقِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ: يَزِدْنَ فِي الْأَعْمَارِ، وَيُعَمِّرْنَ الدِّيَارَ)).

إنَّ الإهداء إلى الجيران مِن أحسن ما يُورِّث المحبَّة، ويَنزِع الضغائن، ويُزيل الأحقاد، ويقوِّي الصِّلة، ويزيد الأُلفة والتراحُم، إذ ثبت عن النبي -ﷺ- أنَّه قال في بيان أثر الهدية: ((تَهَادَوْا تَحَابُّوا)).

والإحسان إلى الجيران يشمل كُلَّ أَوْجُهِ الإحسانِ: مِن الخُلُق الرَّفيع، والأدب الجميل، والكلمة الطيِّبة النافعة، وقضاء الحوائج، والوقوف معه في الشدائد والمكروهات، ونُصحه بالرِّفق والخطاب اللَّيِّن، ولُقياه بالوجه السَّمح الطَّلْق، والحفظ له في أهله وعياله وبيته وماله، والإهداء إليه، والتَّصَدُق عليه إنْ كان فقيرًا، وستر عيوبه وزلاته، وإكرام زائره، والتيسير عليه، وتفريج كُربه، وعيادته إنْ مرض، وتهنئته إذا حصل ما يُهنأ به، وتعزيته إنَّ مات له قريب، وإطعامه إنْ جاع، والصَّفح عنه إذا أخطأ أو تجاوز، واحتمال أذيته، وترك التضييق عليه، ونحو ذلك.

ومَن كانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَليُكْرِمْ ضَيْفَه، وإكرامُ الضَّيفِ يكونُ بطَلاقةِ الوجْهِ، وطِيبِ الكَلامِ، والإطعامِ ثَلاثةَ أيَّامٍ، بما حَضرَهُ مِن غَيرِ تَكلُّفٍ؛ لئلَّا يُثقِلَ عليه وعلى نفْسِه، وبعدَ الثَّلاثةِ يُعَدُّ مِن الصَّدقةِ، ومِن الضُّيوفِ مَن يكونُ حقُّه أَولى، كالضَّيفِ المُسافِرِ، وهو القادمُ مِن بَلدٍ آخَرَ، فحَقُّه وإكرامُه أَولى مِن الزَّائرِ مِن البَلدِ نفْسِه، وليسَ قادِمًا مِن السَّفَرِ. الدرر السنية

تُعْتَبَرُ الضِّيَافَةُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَسُنَّةِ الْخَلِيل -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَالأَنْبِيَاءِ بَعْدَهُ، فهُوَ أَوَّلُ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ وَتَأملوا ثَنَاء الله -سُبْحَانَهُ- عَلَيْهِ فِي اكرام ضَيفه من الْمَلَائِكَة، حَيْثُ يَقُول سُبْحَانَهُ: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)[الذاريات: 24-27].

وإِنَّ السَّخاءَ والكَرَمَ والجُودَ في الخَيْرِ كانَ صِفَةَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-وصِفَةَ الصَّحابَةِ الأَكارِمِ، فَقَدْ رَوَى البخاري ومسلم أنه لما نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ في غَارِ حِرَاءٍ رَجَعَ -ﷺ- يَرْجُفُ فُؤَادُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي" فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: "يَا خَدِيجَةُ مَا لِي وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ"، وَقَالَ: "قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" فَقَالَتْ لَهُ: "كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ".

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ: "إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ. فَقَالَ: "مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟" فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ

شَيءٌ؟ قَالَتْ: لاَ إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيءٍ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِي -ﷺ- فَقَالَ: "قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ"(أخرجه مسلم).

لقَدْ رَغَّبَ الإِسْلاَمُ باكرام الضيف، وَعَدَّهَا مِنْ أَمَارَاتِ صِدْقِ الإِيمَانِ فَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ"(أخرجه البخاري)، وَعَنْهُ -ﷺ-"لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُضِيفُ؟" (أخرجه أحمد)، وَقَال عَلَيْهِ السَّلاَمُ: "الضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَلاَ يَحِل لِمُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤَثِّمَهُ" قَالُوا: يَا رَسُول اللَّهِ وَكَيْفَ يُؤَثِّمُهُ؟ قَال: "يُقِيمُ عِنْدَهُ لاَ شَيْءَ لَهُ يُقْرِيهِ بِهِ"(أخرجه مسلم).

وَهِيَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: "مَنْ لَمْ يُكْرِمْ ضَيْفَهُ، فَلَيْسَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ"، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لِقَوْمٍ نَزَلَ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَضَافَهُمْ، فَلَمْ يُضِيفُوهُ، فَتَنَحَّى وَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى طَعَامِهِ، فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تُنْزِلُونَ الضَّيْفَ وَلَا تُجِيبُونَ الدَّعْوَةَ مَا أَنْتُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ عَلَى شَيْءٍ، فَعَرَفَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُ: انْزِلْ عَافَاكَ اللَّهُ، قَالَ: هَذَا شَرٌّ وَشَرٌّ، لَا تُنْزِلُونَ إِلَّا مَنْ تَعْرِفُونَ.

وَالضِّيَافَةُ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى وَالْحَضَرِ، والضِّيَافَةُ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى آكد؛ لأن الْمُسَافِرَ إِذَا قَدِمَ الْحَضَرَ ووَجَدَ نُزُلاً -وَهُوَ الْفُنْدُقُ- فَيَتَأَكَّدُ النَّدْبُ إِلَيْهَا وَلاَ يَتَعَيَّنُ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ تَعَيُّنَهَا عَلَى أَهْلِ الْقُرَى لَمَعَانٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ يَتَكَرَّرُ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ، فَلَوِ الْتَزَمَ أَهْلُ الْحَضَرِ الضِّيَافَةَ لَمَا خَلَوْا مِنْهَا، وَأَهْلُ الْقُرَى يَنْدُرُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فَلاَ تَلْحَقُهُمْ مَشَقَّةٌ.

ثَانِيهَا: أَنَّ الْمُسَافِرَ يَجِدُ فِي الْحَضَرِ الْمَسْكَنَ وَالطَّعَامَ، فَلاَ تَلْحَقُهُ الْمَشَقَّةُ لِعَدَمِ الضِّيَافَةِ، وَحُكْمُ الْقُرَى الْكِبَارِ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا الْفَنَادِقُ وَالْمَطَاعِمُ لِلشِّرَاءِ وَيَكْثُرُ تَرْدَادُ النَّاسِ عَلَيْهَا حُكْمُ الْحَضَرِ، وَهَذَا فِيمَنْ لاَ يَعْرِفُهُ الإِنْسَانُ، وَأَمَّا مَنْ يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةَ مَوَدَّةٍ أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ أَوْ صِلَةٌ وَمُكَارَمَةٌ، فَحُكْمُهُ فِي الْحَضَرِ وَغَيْرِهِ سَوَاءٌ.

يُسْتَحَبُّ لِلْمُضِيفِ إِينَاسُ الضَّيْفِ بِالْحَدِيثِ الطَّيِّبِ وَالْقَصَصِ الَّتِي تَلِيقُ بِالْحَال؛ لأَنَّ مِنْ تَمَامِ الإِكْرَامِ طَلاَقَةَ الْوَجْهِ وَطِيبَ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْخُرُوجِ وَالدُّخُول لِيَحْصُل لَهُ الاِنْبِسَاطُ، وَلاَ يَتَكَلَّفُ مَا لاَ يُطِيقُ قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: "إِذَا نَزَلَ بِكَ ضَيْفٌ فَلاَ تَكَلَّفْ لَهُ مَا لاَ تُطِيقُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ إِطْعَامِ أَهْلِكَ، وَالْقَهُ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكَلَّفْ لَهُ مَا لاَ تُطِيقُ، أَوْشَكَ أَنْ تَلْقَاهُ بِوَجْهٍ يَكْرَهُهُ"، ويَقُولُ وَصِيَّ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ: "إِنَّمَا تَقَاطَعَ النَّاسُ بِالتَّكَلُّفِ"، وَأَنْ يَقُول لِلضَّيْفِ أَحْيَانًا: "كُل" مِنْ غَيْرِ إِلْحَاحٍ، وَأَلاَّ يُكْثِرَ السُّكُوتَ عِنْدَ الضَّيْفِ، وَأَنْ لاَ يَغِيبَ عَنْهُ، وَلاَ يَنْهَرَ خَادِمَهُ أو ابنه بِحَضْرَتِهِ،

وَأَنْ يَخْدُمَهُ بِنَفْسِهِ، وَأَلاَّ يُجْلِسَهُ مَعَ مَنْ يَتَأَذَّى بِجُلُوسِهِ أَوْ لاَ يَلِيقُ لَهُ الْجُلُوسُ مَعَهُ، وَأَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْخُرُوجِ إِذَا اسْتَأْذَنَهُ وَأَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ إِلَى بَابِ الدَّارِ تَتْمِيمًا لإِكْرَامِهِ وَأَنْ يَأْخُذَ بِرِكَابِ ضَيْفِهِ إِذَا أَرَادَ الرُّكُوبَ.

ومِنْ آدَابِ الضَّيْفِ: أَنْ يَجْلِسَ حَيْثُ يُجْلَسُ، وَأَنْ يَرْضَى بِمَا يُقَدَّمُ إِلَيْهِ، وَأَلاَّ يَقُومَ إِلاَّ بِإِذْنِ الْمُضِيفِ، وَأَنْ يَدْعُوَ لِلْمُضِيفِ بِدُعَاءِ رَسُول اللَّهِ -ﷺ- بِأَنْ يَقُول: "أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ"(أخرجه أبو داود).

ومَنْ نَزَل ضَيْفًا فَلاَ يَزِيدُ مُقَامَهُ عِنْدَ الْمُضِيفِ عَلَى ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، لِقَوْلِهِ -ﷺ-: "الضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا زَادَ فَصَدَقَةٌ" (أخرجه البخاري) لِئَلاَّ يَتَبَرَّمَ بِهِ وَيَضْطَرَّ لإِخْرَاجِهِ، إِلاَّ إِنْ أَلَحَّ عَلَيْهِ رَبُّ الْمَنْزِلِ بِالْمُقَامِ عِنْدَهُ عَنْ خُلُوصِ قَلْبٍ فَلَهُ الْمُقَامُ.

وَلاَ يَأْكُل مِنَ الطَّعَامِ إِلاَّ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْعُرْفُ، مَا لَمْ يَعْلَمْ رِضَا الْمُضِيفِ، وَلاَ يَتَصَرَّفُ بِهِ إِلاَّ بِأَكْلٍ؛ لأَنَّهُ الْمَأْذُونُ لَهُ فِيهِ، فَلاَ يُطْعِمُ سَائِلاً، وَلاَ هِرَّةً، وَلَهُ أَخْذُ مَا يَعْلَمُ رِضَاهُ، لأَنَّ الْمَدَارَ عَلَى طِيبِ نَفْسِ الْمَالِكِ، فَإِذَا دَلَّتِ الْقَرِينَةُ عَلَى ذَلِكَ حَل.

قال -ﷺ-: "ما مِن شيءٍ يوضَعُ في الميزانِ أثقلُ من حُسنِ الخلقِ، وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخلقِ ليبلُغُ بِهِ درجةَ صاحبِ الصَّومِ والصَّلاةِ" صحيح الترمذي

وسُئِلَ رسولُ اللَّهِ -ﷺ-عن أَكْثرِ ما يُدخلُ النَّاسَ الجنَّةَ ؟ فقالَ : تَقوى اللَّهِ وحُسنُ الخلُقِ " صحيح الترمذي.

قال -ﷺ-: " إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا " صحيح الترمذي.

ولئن ضاقت أموالنا أن تسع الناس فلنسعهم بأخلاقنا، قال -ﷺ-:" إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ "وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب".

المراجع:

❶الكلمة الطيبة وحسن الكلام: فواز بن خلف الثبيتي.

❷فلا يؤذ جاره: إبراهيم بن محمد الحقيل.

❸من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه: سعد آل مجري